

من النساء، قيل انهن راقصات وممثلات. اما انا فقد خيل لي ان سكان المدينة اجتمعوا كلهم بينتهبونني بانظارهم الفضولية. اقبلت مركبة المقدم، وكان وصيفه الخاص يحتل المقعد الخلفي المكشوف فمن رأيت يترجل منها بريك؟ كانت «الخيتانلاً» بلحمها ودمها! وقد تجملت لتسبي القلوب وتفتك بالمهج. تبرجت كالعذراء الطاهرة، وازينت وتبرقشت بثوب رجراج ملمع<sup>(٣٠)</sup> وانتعلت حذاء ازرقَ براقاً، وكانت الازاهر والكشاكش الحريرية تحدق بقامتها من كل جانب. وفي احدى يديها دف باسكي، وبرفقتها امرأتان غجريتان احدهما شابة والاخرى عجوز (وكان وجود الاخيرة ضروري لتشجيع الراقصة وتقديمها الى الحفل) ومعهن شيخ غجري حامل قيثاراً جيء به ليعزف ويشجع الرواقص على اداء ادوارهن، ولا اخالك تجهل ان الطبقة الراقية تسلي نفسها عادة بدعوة العجر الى حفلاتها للقيام بالرقصة العجرية المعروفة بـ «الروماليس» او لحملهم احياناً على فعل امور آخر!!.

عرفتني «كارمن» وتقابلت نظراتنا، في تلك الساعة كنت اود لو خسفت بي الارض وقبرتني تحت عمق مائة قدم لكنني لم ادر علة ذلك. حيثني بقولها:

- آكور لاكونا (اي طاب يومك ياسيد) اراك ياضايطي قائماً

٣٠- الثوب الذي تطرزه قطع معدنية لامعة رقيقة نسجت به مما يستعمله

على الحراسة كأبي نفر!

وقبل ان اجد رداً، كانت قد دلفت الى الدار.

كان جمع المدعويين قد احتشد في صحن الدار<sup>(٣١)</sup> ولم يمنعني تجمهر الناس من رؤية ما يجري في الداخل. عبر المجاز، سمعت ضرب الصحنين على ايقاع الدف. ووصلت الى اذني الضحكات والهتافات، وكنت المح رأس «كارمن» كلما قفزت ونطت ودفها في يدها، وسمعت الضباط يخاطبونها بعبارات وقحة اصعدت الدماء الى وجهي. ترى ماذا كان ردها؟

خلتني علقنت بها منذ ذلك اليوم، احببتها حباً ملك علي مشاعري، فراودتني ثلاث مرات او اربع فكرة اقتحام الدار، وقطع رقاب اولئك الخلعاء الغرائيق الذين يغازلونها بحد سيفي. وامتد بي العذاب اكثر من ساعة، خرجت بعدها جماعة الفجر واستقلت المركبة وسارت. ورشقتني «كارمن» حين مرت بنظرة من تينك العينين اللتين عرفتهما انت وقالت لي هامة:

- يا ابن وطني، عندما يشتهي المرء وجبة من اكلة «الفريتوري»<sup>(٣٢)</sup> الممتازة فانه يقصد معطعم (ليلاس

٣١- في اغلب دور اشبيلية توجد عادة، باحة مربعة مفتوحة الى السماء تحف بجوانبها اروقة اربعة، واهلها يسكنونها صيفاً. فوق هذه الباحة، تنصب خيمة ترش بالماء نهاراً وتراح ليلاً. والباب الخارجي يظل مفتوحاً اما الدهليز المفضي الى الصحن والزكوان Zaguán، فيسد بباب حديدي يتفتنون في صنعه ونقشه عادة (المؤلف).

٣٢- وهو صغير السمك مقلباً بطريقة خاصة Friture.

باستيا) في « تريانا »<sup>(٣٣)</sup>.

ووثبت الى المركبة باسرع مما تتوثب العنزة، فالهب الحوذي  
ظهر البغال بسوطه فانطلقت المركبة بالجماعة المرحة الى حيث لا  
ادري.

لابد وانك خمنت بانني ذهبت الى « تريانا » حال انتهائي من  
نوبة الحراسة. لكنني حلقت ذقني قبلها، واعتنيت بهندامي كأنني  
مقبل على عرض عسكري. وكانت تسكن مع « ليلاس باستيا »  
بائع الفريتوري العجوز الغجري ذي البشرة القائمة الشبيهة ببشرة  
المغاربة مثلها تماماً. وكانت داره كعبة القصاد من المواطنين  
تدفعهم شهوتهم الى هذه الاكلة، وخاصة بعد ان نزلت عنده  
كارمن كما اظن. قالت كارمن للعجوز:

- ليلاس، اني لن اقوم بعمل هذا اليوم و « سينكشف اليوم

عن الغد قريباً »<sup>(٣٤)</sup> هيا يا ابن بلدي ولنتنزه قليلاً.

اسدلت ملاءتها على جذعها، وقبل ان اعرف وجهتها كنا في

الشارع.

٣٣- صارت هذه الضاحية من اشبيلية محل اقامة العجر منذ القديم، كان  
عددهم هناك زمن هذه القصة يفوق ما وجد منهم في اي مكان من اسبانيا  
في تلك الضاحية يسكن كل خارج على القانون من غير العجر، ويتجمع  
هناك اغلب شقاة اشبيلية. وربما لا يوجد في العالم محل كريانا « لا استثنى  
نابولي » تسرح فيه الجريمة وتمرح، ولا يقام للسانون اي وزن وقد اعطي  
« سرفانتس » في قصته الرائعة « رنكونيتي كورتا دلو » وصفاً دقيقاً لاخلاق  
ساكنيها (انظر كتاب جورج بورو: العجر في اسبانيا).  
٣٤- مثل اسباني.

قلت لها :

- اظنني ايتها الانسة مديناً لك بالشكر على الهدية التي  
ارسلتها لي ايام كنت في السجن. لقد اكلت الخبز،  
واحتفظت بالمبرد لاشحذ به سنان رمحي، حفظته ليذكركني  
بك. اما النقود فما هي.

فهتفت ضاحكة:

- انظروا! انه ابقى على النقود! لا بأس فانا امرأة فقيرة، لكن  
اي فرق في ذلك؟ ان الكلب لايجوع<sup>(٣٥)</sup> هيا، ولننفقها  
كلها، انك ستكون مضيفي اليوم.

سرنا نحو اشبيلية، ووقفت عند مدخل شارع «الشعبان»  
وابتاعت اثنتي عشرة برتقالة لفتتها في منديلي. ثم سرنا شوطاً  
فتوقفت وابتاعت سجقاً وخبزاً وزجاجة من نبيذ «انزلا» واخيراً  
دخلت دكان حلواني ووضعت امامه قطة النقد الذهبية التي  
ارجعتها لها مع اخرى مثلها وقطع فضية اخرى كانت في جيبها  
وطلبت مني اخراج كل ما في كيس نقودي وكان قليلاً، فاعطيتها  
اياها وانا احس بخجل عظيم لتفاهته. خيل لي انها تريد شراء كل  
ما دكان الحلواني. وقد تخيرت بكل ما جمعت من مال، أنفس  
واغلى نوع من حلوى «اليماس والتورن»<sup>(٣٦)</sup> والفاكهة المجففة

٣٥- لعله مثل غجري. وهو يشبه من بعض الواجه مثلنا العامي: الكلب الدوار  
خير من السبع المربوط.

٣٦- اليماس هو مح البيض الجامد ملبساً بالسكر. والتورن هو اللوز الملبس  
بالسكر، yemas turon.

كلها حملتها باكياس ورقية<sup>(٣٧)</sup>. لعلك تعرف شارع القنديل  
candilêjo حيث يقوم التمثال النصفي للملك دون بدرو Don  
Pedro<sup>(٣٨)</sup> حامي ذمار العدالة. كان يجب ان يحملني اجتيازي

٣٧- ليس في العالم شعب يفوق العجر اسرافاً وتبذيراً في اعيادهم وحفلاتهم.  
في اغلب مناسبات زواجهم يجلب المتزوجان الخراب على نفسيهما مدى الحياة  
لبعثتهما المال مينة ويسرة. وان اردت الاستزادة فارجع الى كتاب «جورج  
بورو» الموسوم (العجر في اسبانيا).

٣٨- الدون بدرو، هو الذي يسميه الناس (القاسي) وتسمية الملكة ايزابيلا  
الكاثوليكية (بحامي ذمار العدالة). كان هذا مرة يجوب شوارع اشبيلية  
باحثاً عن المغامرات اسوة بزميله هارون الرشيد الخليفة العباسي واتفق ان  
اشتبك في معركة دموية مع رجل يعزف على آلة موسيقية في احدى الازقة،  
فارداه قتيلاً، وسمعت عجوز صليل السيوف فاخرجت رأسها من النافذة  
ومدت يدها بقنديل انارت ساحة المعركة. ومما تجدر الاشارة ان الدون بدرو  
كان يجمع الى قوته الهرقلية ومتانة الواحه، عاهة غريبة وهي ان رضفتي  
ركبتيه كانتا تقمقان بصوت مسموع حين يمشي. فلم يصعب على العجوز  
تمييز الملك بهذه القعقة. وفي اليوم التالي جاء حاكم يبلغ الامر الى الملك  
قائلاً: مولاي حصلت مبارزة يوم امس في شارع كذا، وقتل احد المتبارزين  
فسأل الملك: هل وجدتم القاتل؟ اجاب الحاكم: نعم يامولاي. فقال الملك: هل  
استوفى قصاصه؟ اجاب الحاكم: نحن بانتظار امرك يا مولاي. فقال دون  
بدرو: فلتأخذ العدالة مجراها. وكان الملك منذ زمن غير بعيد قد اصدر  
مرسوماً يقضي بقطع رأس كل من يبارز وعرض رأسه في ميدان المبارزة.  
واتفق ان حاكم المنطقة كان داهية اريباً. فانقذ نفسه من الموقف المحرج  
ببراعة، امر باحد تماثيل الملك ففصل عنه رأسه وعرضه على مشكاة وسط  
البقعة التي وقعت فيها الجريمة فوجد الملك واهل اشبيلية في ذلك حلاً طريفاً  
وكياسة فائقة. ومنذ ذلك الحين وهذا الشارع يعرف بشارع القنديل نسبة الى  
قنديل العجوز الذي انار ساحة المعركة وكان شاهداً الوحيد- هذا عن الاصل  
التاريخي. ولكن المؤرخ (زونبكا) له رواية اخرى (انظر في كتاب ايام  
اشبيلية م ٢ ص ١٣٦) وعلى كل حال ففي اشبيلية الان شارع بهذا الاسم  
تقوم في وسطه صورة حجرية نصفية يقال انها صورة الملك «دون بدرو» لكن  
مما يبعث على الخيبة، انها جديدة الصنع وقد رفعت القديمة في القرن السابع  
عشر بعد ان اصابها تلف عظيم وأمرت بلدية المدينة بوضع الصورة الحجرية  
التي نراها اليوم. (تعليق الناشر)

اياه على التفكير ملياً بما انا مقدم عليه. لكن سبق السيف العذل  
وسرت معها قدماً، حتى وقفنا امام دار عتيقة من دور هذا  
الشارع. قطعت كارمن الدهليز وقرعت باب الطابق الارضي،  
فاقبلت غجربة اخرى من خادومات الشيطان! وفتحت الباب  
فتبادلت «كارمن» عبارات قليلة معها بلغتها، فابدت العجوز  
الشمطاء تمنعا واباء اول الامر. ولما ارضتها «كارمن» ببرتقالتين  
وملاء راحة اليد من الحلوى وجرعة نبيذ، وضعت ملاءتها على  
رأسها وقادتنا الى الباب الذي كان موصوداً بعوارض خشبية.  
ولما صرنا وحدنا شرعت كارمن ترقص وتضحك كالمجنونة وتنشد  
قائلة:

«انت زوجي، وانا زوجك!»

وقفت في وسط الغرفة موقراً بحمل ما ابتعنا، حائراً اين  
اضعه. لكنها ما لبثت ان انتزعتة مني والفته جانباً وشبكت  
عنقي بذراعيها وصارت تهتف:

- ها انا أفي بديني.. أفي بديني، تلك هي شريعة الكاليس  
Cales<sup>(٣٩)</sup> آه لذلك اليوم ياسيدي.. آه لذلك اليوم! فكلما  
انصرف اليه تفكيري نسيت غدي!

٣٩- مؤنثها كالي Calli ومعناها بلغة الفجر «سوداء» ومذكرها كاليو Calo  
وجمعها (كاليس) كما تقدم في المتن. وهو ما يطلق على كل شخص غجري  
(انتهى كلام المؤلف) الظاهر ان الاسم المحلي العراقي لهؤلاء القوم، هو اقرب  
للحقيقة من الاسماء المحلية للمجتمعات العربية الاخرى، ففي سورية يسمى  
هؤلاء (النور) وفي مصر (الفجر) اما نحن في العراق فنطلق عليها اسم  
(الكاولي) و (الكاولية) فلاحظ التقارب. (م)

\* \* \*

سكت قاطع الطريق برهة، ثم اشعل سيكارة واستأنف حديثه:  
بقينا طول اليوم وحدنا، نأكل ونشرب و.. والافضل ان نمر  
بذلك مر الكرام. كانت اثناء هذا، تلتهم الحلوى كطفلة غريرة  
لاتتجاوز السنوات الست، وتلقي حفنات منه في جرة العجوز،  
لتجعله حلواً معطراً على حد تعبيرها. كانت تقذف بحلوى  
«اليماس» الى الحائط، ليجري اليه الذباب ويدعنا في راحة! لم  
تبق حماقة وسخافة الا انتها. قلت: اني اود الاستمتاع برقصها  
لكن اين لها «بصحنين»؟ تناولت في الحال صحيفة العجوز  
الوحيدة وهشمتها. أه لو رأيتها ترقص رقصة «الرومالس»  
وتضرب قطعتي الصحيفة احدهما بالآخر كأنها صحنان من العاج  
او الابنوس! يمين الله ان المرء لا يميل صحبة تلك الفتاة.  
عسعس الليل، وسمعت قرعات الطبول تنادي الجنود الى  
الشكنات فقلت لها:

- يجب ان اعود الى الشكنة لاحضر التعداد الليلي.

فأجابت بصوت فيه رنة استهزاء:

- الى ثكنتك؟ أنت عبد زنجي ام ماذا؟ ادعهم يسوقونك  
بالسياط؟ انك كنار<sup>(٤٠)</sup> حقيقي قلباً وقالباً، اذهب انك  
لاضعف قلباً من فرخ دجاجة..

٤٠- ان ألبسة شرطة الاسبان الخيالة صفراء اللون كطائر الكناري «لا يخفى  
على القارئ تعريض كارمن». (م)

لم ار بدأً من البقاء، واضعاً نصب عيني امر تسليم نفسي  
لسجن الحرس. وفي صبيحة اليوم التالي كانت البادئة بالحديث  
عن الفراق حيث قالت:

- اصغ اليّ يا (خوزيتسو)، اني سددت دينك بالنظر الي  
شريعتنا، فانا الان بريئة الذمة بوصفك اجنبياً عني. لكنك  
جميل الطلعة وقد سررت بك للغاية. اننا الان متساويان  
لايدين احدا للآخر بشيء فمع السلامة!  
سألته أين سأراها ثانية، فأجابت ضاحكة:

- عندما تكون اقل حمقاً وغباء (ثم استتلت بجذ وصرامة) اتعلم  
يا رفيقي اني احببتك قليلاً؟ لكن هذا لايدوم، فالكلب والذئب  
لا يمكن ان يظلها سقوف واحد زمناً طويلاً. لو صرت غجرباً  
لارتضيتك زوجاً. لكن هذا كله سخف وهراء انه مستحيل. آه  
يا طفلي ان خير ما تفعله هو ان تنفض يدك مني، فقد لقيت بي  
الشیطان نفسه. اجل الشيطان نفسه وهو ليس اسود اللون  
دائماً! كما وانه لم يكسر رقبتك الى الان. انني البس الصوف  
لكني لست حملاً<sup>(٤١)</sup> اذهب الى الماخاري Majari<sup>(٤٢)</sup> اذهب  
اليها وانر شمعة امامها فهي تستأهل. والان فلنخرج ومع  
السلامة ثانية. لاتفكر «بكارمنسيتا» بعد الان والا عمدتُ  
الي تزويجك بارملة خشبية الساقين.<sup>(٤٣)</sup>

٤١- مثل من امثال العجر. (م)

٤٢- هي السيدة؟ العذراء مريم. (م)

٤٣- المشنقة. (م)



قالت هذا ورفعت متراس الباب، وما ان احتواها الشارع حتى اخفت رأسها في ملاءتها واولتني ظهرها.

لقد قالت الصدق فلو كنت عاقلاً لنبذت التفكير فيها وقنعت من الغنيمه بالاياب. لكنها بقيت مسيطرة على خاطري دون الاشياء جميعاً منذ يوم شارع القنديل فكنت اجوبه طولاً وعرضاً مؤملاً ان يقع عليها بصري ثانية. سألت عنها بائع السمك والعجوز، فقالا انها ذهبت الى الارض الحمراء (اي البرتغال) وربما كانا يجيبان حسب تعليمات تلقيهاها من كارمن تنفيذاً لخطتها وهي ابقائي بعيداً عنها. لم يطل الزمن بكذبهما فبعد بضعة اسابيع من ليلتي تلك، عينت حارساً لاحد ابواب المدينة وكان البناءون قد فتحوا على مسافة قريبة منه، ثغرة في السور يشتغل فيها العمال نهاراً حتى اذا جاء الليل نصب حارس قريبها لمنع المهربين من الدخول الى المدينة بمهرباتهم. وقد لاحظت ان (ليلاس باستيا) الشيخ يتسكع قريباً من مقر الحرس ويحادث بعض الرفاق وكانوا يعرفونه ويعرفون سمكه وأكاله اكثر من شخصه. دنا مني وسألني: هل سمعت خبراً عن كارمن؟ فقلت: كلا. فقال: لا بأس «وستسمع عنها ايها الصديق في القريب العاجل» ولم يعد الحقيقة، ففي تلك الليلة بالذات عينت حارساً للثغرة، وما ان تركني العريف وحيداً، حتى لمحت امرأة مقبلة وحدثني قلبي انها كارمن. ومهما يكن فقد صحت في القادم:

- ابتعد يا هذا فالمرور محظور من هنا.

- رويدك لاتكشر لي عن انيابك! (قالت هذا واظهرت نفسها لي)  
- ماذا؟ اهي انت يا كارمن؟  
- اجل يا ابن بلدي، فلنتحدث قليلاً، لننفذ الى صميم الموضوع. اتريد ان تريح ديناراً ذهبياً؟ سيقبل بعضهم بطرود، فدعهم ييرون.  
- كلا ساوقفهم فهذه هي الاوامر.  
- اوامرك، اوامرك!! انك لم تبال بالاوامر في شارع القنديل.  
اضطريت لذكر هذا الشارع وقلت: «آه انه ليستحق نسيان الاوامر، انني لا اريد نقود مهريين».  
- فلتفكر اذن، مادمت زاهداً في المال، فلعلك لاترفض دعوة غداء ثانية في بيت العجوز «دوروثيا»؟  
صحت كالغريق المتخبط في لجة البحر الطاغية، وانا ابذل آخر مجهود لاقاوم الاغراء: «كلا.. لا استطيع».  
- كما تشاء اذن. ما دمت شديد العناد، فسأعرف ممن اطلب هذا. سأغوي ضابطك وأخذه الى دار «دوروثيا» انه في الظاهر شاب ظريف ولن يتردد في وضع حارس لا يرى اكثر مما يسمح له. استودعك الله يا كناري، سأضحك كثيراً عندما تكون الاوامر سبباً لارسالك الى المشنقة.  
ضعفت نفسي وخار عزمي فناديتها ووعدها ان اطيعها في كل شيء حتى لو شاءت ان ترمي القجر كلها! بشرط ان تنيلني